أحمد زكى

صاحب نظرية الإيمان العلمى

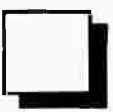

هذا العالم الجليل..مع الله فى مسيرة العلم والإيمان، فى رحلة العقل والوجدان، فى نتاج علمه أو عطاء أدبه.

الدكتور أحمد زكى.. مع الله.. كما تعلن عناوين وصفحات ومحتويات كتبه ودراساته وأبحاثه ومقالاته وتجاربه.

مع الله فى الأرض أو فى السماء.. هكذا اختار.. لفكره الإسلامى.. عناوين ومضامين.. تميزها عن غيرها.. من الكتابات الإسلامية.. لما يقرب من نصف قرن.

سأله مرة صديقه المفكر الإسلامى أحمد أمين عما تعلمه من الحياة بعد رحلته معها؟

فكان من جملة رده عليه: «علمتنى الحياة كراهة الضيق.. الضيق فى المكتب، والضيق فى المسكن، والضيق فى المغدى والرواح.. وكذلك ضيق العقول، وضيق القلوب.. إن الذى ظهر لنا من هذا الكون دنيا لها أفق واسع، والذى لم يظهر لنا منه له أفق، بل آفاق أوسع.. وليس يناغم الحى الحياة فى هذه الدنيا إلا بالواسع من كل شىء.. وأكره ما أكره من صنوف الضيق، ضيق الأذهان على أى صورة فى الناس كان.. وما أكثر صوره التى يكون بها فى الناس وهم يعبرون عنه بالتعصب الذهنى. وقد يتعصب الرجل لرأيه جزافًا، وقد يتعصب لأسرته جزافًا، وقد يتعصب لأمته أو للونه أو لدينه أو حتى لعقيدة سياسية.. وهذا حمق ذهنى لم أجد وراءه حمقًا، واعتداد بالغ بقدرة عقل بعد أن تبين الناس ما فى العقول من قصور..

أما ضيق القلوب، فصفة للقلب الذى لا تدخله الرحمة من باب واسع، الرحمة التى تسع الناس جميعًا، من كل رأى وكل جنس وكل أرض.. الرحمة التى تسع المحسن وتسع المسىء، وتدرك حقيقة الطبيعة الإنسانية فى أوج علاها، وفى الدرك من حضيضها، فتفهم كل شىء، وتغفر كل شىء.. الرحمة التى تطول فيطاول بها الإنسان رحمة الله عز وجل[1].

هذا العالم الذى يستشعر رحمة الله عز وجل فى كل شىء.. نراه يناجى ربه فى «ساعة مع الله» فيقول: «أى ربى... أين أنت؟ وكيف تكون؟..

خلقتنا وتواريت عنا، اختفيت عن أبصار لنا وعن أسماع، وقلت: انظرونى بالبصيرة عن البصر، وانظرونى بالفكر عن طريق العقل. ولكنك أعطيتنا عقلاً يتلاشى كلما تعمق فيما ينظر فيه.. كالشمس تلقى أشعتها فى البحر فلا تنير منه إلا ظهرًا، وتبقى على ظلماتها البطون!

وننظر إلى ما خلقت، فنحس حركة وراء ثوب الطبيعة هذه التى خلقت.. والحركة إن دلت فهى تدل على موجود.. ولكن ما كنهه؟ ما هويته؟ ما بدؤه؟ ما انتهاؤه؟ لسنا ندرى. ولا هو ـ سبحانه وتعالى ـ يريد لنا أن ندرى. وما كان أيسر عليه لو أنه أراد.

أى ربى.. إن القوة لك، والنصر منك، والهدى.. فاهدنى يارب أنا وذوىّ.. من لدنك رشدا[2]».

هل نحن فى حاجة إلى التعرف على عالمنا الجليل الدكتور أحمد زكى.. قبل أن نطوف.. فى رحاب فكره الإسلامى.. القائم على العلم والإيمان؟ هل هناك ضرورة من أن نضع هذا المفكر كله بأجمعه فوق راحة اليد لنرى ونتأكد أن تجربته مع العلم والإيمان.. لم تأت من فراغ؟ هل نحن فى حاجة إلى معرفة معالم رحلة الاثنين والثمانين عامًا مع الحياة.. التى بدأت فى عام ١٨٩٤م وانتهت فى عام ١٩٧٦م؟ هل نحن فى حاجة إلى الاقتراب من هذا المزيج الفريد، من العالم والاديب.. الذى تجىء كتابته علمًا هو إلى الأدب أقرب، وأدبًا هو فى باب العلم أدخل؟!

إن رحلة الاثنين والثمانين عامًا للدكتور أحمد زكى غنية بالأحداث، ولكننا هنا نتوقف عند أبرز الأحداث فى حياته تلك التى تعطينا ملامح ومكونات وسمات هذه الشخصية الفريدة.

الدكتور أحمد زكى مربيًا.. كان ذلك بعد تخرجه من مدرسة المعلمين العليا.. ضمن دفعة سيطرت فيما بعد على التعليم فى مصر، وبالطبع يبدأ حياته العملية ـ كغيره من الخريجين ـ مدرسًا بإحدى المدارس الثانوية، ولا يمضى عامان أو ثلاثة. إلا وكان هذا الشاب النابه ناظرًا لمدرسة ثانوية.. فيها من الطلاب من هم أكبر منه سنًا وأضخم جسمًا. وتصبح تربية الشارب ضرورة تتطلبها ظروفه الراهنة، ليتميز عن طلابه، حتى أمام الإنجليز.. الذين كانوا يقتحمون المدرسة بسبب المظاهرات، التى كانت تحدث بين آونة وأخرى قبل ثورة ١٩١٩م. وحين يحدثك عن ذكريات هذه المرحلة بالذات، تلمع فى خاطره صور لتلاميذه، منهم من خاب وضاع فى زحمة الحياة، ومنهم من كان له شأن عظيم.. حتى أصبح يحدثك باطمئنان حديث الخبير. فمنذ البداية ينبه إلى الاهتمام بالطفل على اعتبار أنه رجل المستقبل، فيقول: «الطفل كالصحيفة، أنصع ما تكون وهى بيضاء، ويخط الزمن فيها خطًا من بعد خط،وقد يتألف من الخطوط سويًا.. ذات بساطة وذات جمال، وقد تتألف منها رسوم معقدة ذات غموض، وذات إبهام، وقد يميل الخط فيها إلى الخط، وقد يركب فيها الخط ،فتتهوش وتقبح وتشوه. ومهما يحصل فيها من قبح أو حسن، فهى سوف تنتهى دائمًا بأن تكون قليلة البياض كثيرة السواد، من أجل هذا يحرص الحارص على أن يراها قبل أن يكثر فيها المداد.

ويحدثك وهو الخبير فى مجال التربية والتعليم فى المدارس أو الجامعات، فيرى أن المراحل الابتدائية تدفع لنا بأعداد ضخمة ممن يجهلون القراءة.. والإعدادية يقف تلاميذها أمام الباب الضيق للتعليم الثانوى، والثانوية التى تحفل بالحائرين أمام أبواب الجامعة.. ويرجع السبب فى كل ذلك إلى هبوط مستوى التعليم، لكنه مع ذلك يطمئنك عن ظاهرة انفصال الجامعة عن المجتمع، قائلاً:

«هذا الذى يحدث عندنا.. له مثيل فى كل جامعات الدنيا.. وعلى وجه الخصوص جامعات العالم المتحضر.. إنك تسمع فى الناس الشكوى».

الدكتور أحمد زكى أديبًا.. البذرة كانت مغروسة فى أعماله منذ الصغر، فالأب يحضر دروس الإمام محمد عبده، ويعود منها فيحدث عنها الابن الصغير. ومن هنا تفتحت عيناه على الأدب والدين. وليس صدفة أن يبدأ الفتى بالشعر، إذ كان الأب يقرأ عليه المتنبى والبحترى وغيرهما من شعراء العربية. لكنه ينتهى بالنثر فيكتب مقالاً بمجلة السفور يرد فيه على أديب عصره مصطفى لطفى المنفلوطى، وتتميز كتابته ـ منذ بدايتها ـ بطابع خاص.. إنها تتسم بطابع العلم. وهو يفعل ذلك دون أن يقصده. وليس غريبًا إذن أن يقول عنه العقاد بعد ذلك: «إنى لا أقرأ للدكتور أحمد زكى شيئًا إلا وأتصوره. قد جلس إلى مكتبه وبيده قلم، وبيده الأخرى مسطرة. وحين يحدثنا هو نفسه عن أسلوبه يقول: «يغلب عليه بالفعل أثر العلم، فليس فيه الترداد والتكرار. وكل كلمة تهدف إلى معنى لا تزيد عليه ولا تنقص».

ولعل هذا المزج بين العلم والأدب، هو بعينه الذى جعل الدكتور أحمد زكى لا يضع حدودًا فاصلة بين المعانى العلمية والأخرى الأدبية.. فكلها فى رأيه معانٍ إنسانية، والفصل بينها مفتعل.

الدكتور أحمد زكى صحفيًا.. لقد أحب الصحافة، واختارها مهنة تنتهى ـ فى خدمتها ـ حياته، حيث قال قبل عام من وفاته .. كنت أستاذًا بالجامعة، ومديرًا لهيئة علمية، ومديرًا للجامعة، ووزيرًا.. ولو أن الحياة عادت بى من جديد، وأذن لى أن أتمنى، ما تمنيت غير مهنة القراءة والكتابة.

والصحافة كانت فى رأيه مهنة ورسالة، وليست سلعة أو تجارة، والصحفى لن يكون كذلك «بالفهلوة» أو «بالشطارة»، وإنما بالاطلاع والثقافة.

قيمٌ ومبادئٌ آمن بها الدكتور أحمد زكى، وكانت بالنسبة له أسلوبًا ومنهاجًا. نلمحه فى كتاباته الكثيرة، فى صحف ومجلات البلاغ والمقتطف والثقافة

والرسالة والهلال والعربى، كما ندركه من أسلوب إدارته للعمل الصحفى. كرئيس لتحرير الهلال فى أربعينيات وخمسينيات هذا القرن، والعربى فى ستينيات وسبعينيات هذا القرن أيضًا.

وما أعظمه من تقدير.. يناله إنسان بعد وفاته.. قالت عنه الدار التى كان رئيسها: «قام بمسئولية إصدار مجلة العربى وقد جاوز الستين من العمر. فبدأ معها رحلة جديدة من حياته، ساير عليها سبعة عشر عامًا متواصلة، وبنشاط لا يعرفه الشباب».

وحين يحدثك عن الصحافة.. هذه المهنة التى تأكل أبناءها.. إنه يحدثك عن همومها ومتاعبها فيقول فى عبارة بليغة: «وأى متاعب؟ إنها متاعب من تعمل لهم وفيهم ثم متاعب من الشعوب، إن الشعوب ولاسيما القديمة. كالقطط تنتظر منك أن تمر بكفك مرًا خفيفًا على شعرها، ولكن فى اتجاه واحد. فإذا أنت غيرت هذا الاتجاه نالك من مخالبها الشىء الكثير. إن كلمة الحق كثيرًا ما تؤلم، ولست ممن يحبذون جديداً لجدته، ولست ممن يرفضون قديمًا لقدمه، ولكن حتى يكون الحلال بينًا، والحرام بينًا.. لا يقدم الأسواق تاجرٌ من تجار الفكر يجد فيما يقال كسباً مضموناً عند شعوب لاتزال تحاول القيام».

وعن أشد ما كان يواجهه الدكتور أحمد زكى.. من أزمات فى عمله الصحفى يقول: «الفكر الذى يكتب ولا ينشر، فكرٌ سجين.. وسجن الفكر كسجن صاحبه، تضيق به إنسانيته».

الدكتور أحمد زكى عالماً.. كان يعرف مقدمًا أن الطريق أمامه شاق، ولكنه كان يؤمن فى نفس الوقت بأن العلم دائمًا ينتصر. وفى سبيل ذلك ضحى بوظيفته كناظر لمدرسة ثانوية وهو بعد لم يتجاوز الخامسة والعشرين، كما ضحى بتبنى الحزب الوطنى له.. ضحى بهذا وبغيره وألقاه خلف ظهره.. وركب البحر ليقضى عشر سنوات بعيدًا عن مصر، متنقلاً بين جامعات أوربا، فمن «كوتنجهام» إلى «ليفربول» إلى «منشستر» إلى «جراتس».. وعاد إلى بلده وقد

اكتسب ثقافة واسعة، وعلمًا غزيرًا، وعدد من الشهادات منها: بكالوريوس فى العلوم، دكتوراه فى الفلسفة، دكتوراه أخرى فى العلوم البحتة، وهى أعلى ما تعطيه الجامعات فى أوربا من درجات علمية.. ويتم تعيينه أستاذًا مساعدًا للكيمياء فى كلية العلوم، ويترقى إلى أستاذ ثم وكيل للكلية، وينتخب عميدًا.. لكن عوامل السياسة تتدخل فى أمر هذه العمادة، كما تدخلت فى أمر عمادة صديقه الدكتور عبد الرزاق السنهورى بكلية الحقوق.. لقد انتخبهما أساتذة كليتى العلوم والحقوق عميدين بالإجماع.. وهل كان هناك من هو أفضل من أحمد زكى فى العلم، ومن السنهورى فى القانون؟! لكن لأمر ما رفض مصطفى النحاس اعتماد قرارهما بوصفه رئيسًا للوزراء.. وكانت أزمة كبيرة.. انتقلت من الجامعة إلى البرلمان حيث استجوبت المعارضة ـ وقد كانت قوية وطنية ـ الحكومة فى ذلك الموضوع. ولم يكن من رئيس الحكومة مصطفى النحاس ـ رحمه الله ـ إلا أن يرد عليهم بقوله: «القانون يعطينى هذا الحق» وتتكشف الأمور.. ويصبح هذا القانون الذى يلوحون به فى كل كبيرة وصغيرة بريئًا من هذا الموقف. وهل يقف القانون ضد قرار بالإجماع اتخذته الجامعة فى شأن من شئونها؟

بالفعل لم يكن القانون.. إنما هو الاحتلال البريطانى.. ذلك المحرك للسياسة المصرية فى ذلك الوقت.. ويسعى الدكتور طه حسين للوساطة بين أحمد زكى والحكومة، وتستبدل العمادة للكلية بوظيفة لمصلحة حكومية.. هى مصلحة الكيمياء. فيبدو أن منصب العمادة كان من حق الإنجليزى المحتل، وليس من حق أبناء البلد.

ويبقى الدكتور أحمد زكى فى مصلحة الكيمياء حتى ينقل لعمل أهم وأكبر.. هو مديرٌ لمجلس فؤاد الأول للبحث. ومن هذا الموقع الجديد يضع الدكتور أحمد زكى أساسًا للمركز القومى للبحوث العلمية. ويحاول إرساء قواعد وقيم علمية جديدة فى بلدنا، ويخوض بسبب ذلك معارك كثيرة.. ينتصر حينًا وينهزم أحيانًا.. وهذه أمور طبيعية تحدث لإنسان طموحه أكثر من مركزه.. وعندما تذكره بكل هذه الأحداث فلا يزيد بأكثر من تعليق.. كانت أيام!

وهذا العالم ماذا عن علاقته بنفسه، وبغيره وأقربهم له، وأخيراً بربه؟

علاقته بنفسه يجسدها أحمد زكى بالقول: «صحيح أن العلماء ينمون عقولهم ومواهبهم الفكرية. ولكنهم لا يهملون تربية أجسامهم فلا أحسبهم أكثر إهمالاً من أهل العقول الأخرى. فالعالم الحديث يعرف أن لجسمه عليه حقّا، وبأنه إذا اختل كان هو أشعر الناس وأحسهم بهذا الاختلال. وما عرفت عالمًا وضع يده على جنبه الأيسر، وقال: واكبداه.. ولكن عرفت أصحاب عقول لمهن أخرى فعلوا ذلك. فالعالم وهو أقدر الناس على فهم اختلال جسمه، فإنه أقدرهم على إصلاح ما اختل. وهو لا يصلح ما اختل بالرقى والتعاويذ، كما يفعل غيره من سائر العقول الأخرى.

وأسرته.. وهل تأثرت بنمط حياته العلمية؟.. على اعتبار أن كل إنتاج يؤثر فى الحياة اليومية للرجل المنتج. ومن الأسر من تشقى بالمنتجين من الرجال. أما عالمنا فيصرح بـ: «أن أسرتى تحملت بسبب انشغالى.. الغيث الكثير. ولكن كان مع الغيث الصبر.. فكان ذلك خير عون لى على مواصلة طريق العلم الطويل».

وإذا كانت هذه هى علاقة عالمنا بنفسه وبأهله، فما هى علاقته بربه؟.. هل يقترب من الله بعلمه؟.. ويأتى الرد: «قليل العلم أدرك وجود الله بالفطرة.. أدركه كما أدرك السابقون من أمم الأرض، حين رأوا ما فيهم من عجز وما حولهم من قوة، وما بهم من ضعف، وما يملكون من إرادة لا تكاد تسير خطوة حتى تتعثر وتحطمها إرادات أشد وأقوى..

أما العالم فقد أدرك وجود الله درسًا، وأدركه عقلاً، وأدركه منطقًا، وأدركه إدراك الرجل حتى ذلك الذى تخرج له أرقامه ومعادلاته نتائج لابد هو مؤمن بها. وإن كان إيمانًا ليس كإيمانه بالعلم يمسكه فى يده، أو الورق يكتب عليه».

الدكتور أحمد زكى مفكرًا.. تمر الأيام والسنون.. وكلها تزيد من الرصيد الفكرى لعالمنا الراحل، حتى يعدّ واحدًا من جيل العمالقة الذين التزموا كلٌّ - فى موقعه - بمسئولية التنوير العقلى والوجدانى للإنسان العربى.. فى بدايات هذا القرن لقد مارس هو وغيره.. بكثير من التضحيات الباسلة، قيم النضال من أجل سيادة هذا الإنسان على أرضه ومصيره.

والدكتور أحمد زكى بهذا المعنى يعدّ مفكرًا. . فحياته هى فكره، وفكره كان دائمًا حياته، وكانت حياته وفكره معًا فى خدمة الثقافة العربية الإسلامية لأكثر من نصف قرن من الزمان.

ولعل أهمية الدكتور أحمد زكى. . ترجع إلى أنه حاول أن يبتدع أسلوبًا جديدًا. . قوامه الحياد والموضوعية مع الدقة والوضوح. . وقد ساعده على ذلك أمران ـ أولهما: تجرده من الانتماء لأى من الاتجاهات السياسية تلك التى تؤثر فى نظرة صاحبها إلى الأشياء ـ وثانيهما: كونه عالمًا. . والعلم يعدّ الموضوعية والدقة والوضوح من مقوماته الأساسية التى لا غنى عنها.

وهو بهذه الكيفية. . له نظرته الخاصة إلى الأشياء. . فمثلاً عندما تسأله ـ كعالم ومفكر إسلامى ـ عن المادية والروحية وتأثيرهما على المجتمعات فى الغرب والشرق، يرد عليك بالقول: «أعجب ما أعجب له الحديث عن المادية والروحية. . فمثلاً. . حديث الاقتصاد عند الروحانيين حديث مادة، وعجلات الصناعات إنما تجرى بأصوات منكرة لأنها تخرج عن مادة، ومع هذا هم لا يرفضون ثمرات المادة. . كالمائدة العامرة، واللباس الأنيق، والسيارة الفخمة، والإذاعة المسموعة أو المرئية. . وغيرها أشياء يصنعها الماديون ليستمتع بها غيرهم من الروحانيين.

وعندى أن رجلاً عاملاً يقف الثمانى ساعات كل يوم أمام آلاته، ويعود فى آخر اليوم إلى بيته، ينفق مما كسب على أهله طعامًا هنيئًا، وكساءً سابغًا، ومسكنًا طيبًا، وترفيهًا ما استطاع ترفيهًا، ويسجد لله يحمده على ما كسب. . هذا الرجل وهو يعمل فى الماديات لينعم هو أو أهله. . روحانى فى الصفوف الأولى من الروحانيين. وحسبه من روحانيته أنه أحيا بعمله فى المادة، أرواح ذرية مساكين، وكل ذرية مسكينة لأنها على الصغر بالعجز مرسومة.

ثم إنى لا أدرى ماذا يعنون بالمادية وماذا يعنون بالروحانية؟ فإن أنت أبعدتهما عن معانى الأديان وصدق وكذب الإيمان، وقصرتهما على ما يصنع الإنسان لأخيه الإنسان، فاعلم أن مادية الغرب بهذا المفهوم خرافة، واعلم أيضًا أن روحانية الشرق بهذا المفهوم خرافة أيضًا».

ننتقل بعد ذلك إلى منهجه.. حيث نستدل على هذا المنهج من كتاباته. فكما أن الرجل لم يحرص ولم يهتم بأن يكتب سيرة حياته.. على نحو ما فعله معظم أفراد جيله من الأفذاذ. فكذلك لم يلح فى الإعلان عن هذا المنهج.. وإنما ترك بين أيدينا صورة حية لفكره وعلمه تستطيع أن تجيب عن الأسئلة المطروحة حول أسلوب الرجل أو منهجه.. والذى نستطيع أن نضع له اصطلاحا هو «منهج الإيمان العلمى».. وهنا تسأل متى وكيف ظهر هذا المنهج.. عند عالم كهذا.. المفروض أنه يتعامل مع المادة العلمية وأساس عمله التجربة المعملية؟

لعل بذرة هذا المنهج.. بمعناه الشامل.. قد ظهرت عند الدكتور أحمد زكى حين كان يقوم بتدريس مادة التاريخ الطبيعى لطلبة الأزهر عام ١٩١٨م. وحدث وهو يلقى محاضرته أن ذكر أن عدد الضلوع فى جانبى جسم الإنسان متساو.. فاعترض الطلبة ـ بفعل أفكار مسبقة ـ بأن عدد ضلوع الجانب الأيسر ينقص ضلعًا.. هو بعينه الذى خلقت منه أمنا حواء.. من جسد أبونا آدم. وهنا دعاهم العالم الشاب أحمد زكى إلى التروى والتفكير والتأمل والهدوء.. مؤكدًا أن الدين.. وعلى وجه الخصوص الدين الإسلامى لا يتنافى مع العلم. وبدأ يطابق بين ما جاء فى القرآن الكريم، وما جاء فى العلم من حقائق.. ليثبت أنه ليس هناك ثمة اختلاف بين ما جاء به الدين الإسلامى، وما يراه اليوم العلم الحديث.. إلى أن اقتنع الطلبة، والأكثر اقتنع هو بأن الميدان يخلو من عالم يوفق بين قضايا الإيمان وقضايا العلم.

ربما كانت هذه الحادثة.. هى البداية لبناء نظرية كبرى.. ظل الدكتور أحمد زكى يبنى صرحها طوال حياته، وهى نظرية «الإيمان العلمى».. تلك التى توفق بين ما جاء فى الدين من تعاليم، وما يقدمه العلم من نظريات.

يضاف إلى ذلك سبب آخر هو كون الدكتور أحمد زكى أديبًا، ولهذه الصفة بالذات.. كان كل من يقرأ كتاباته يخرج بنتيجة، هى أن الفارق بين العلم والأدب مفتعل.. لدرجة أنه كان يلقب فى وسط العلماء بأنه أديب العلماء،

وفى وسط الأدباء بأنه عالم الأدباء. وفى هذا الصدد يقول: «صحيح أن الفارق بين العلوم والآداب فارق مفتعل.. إن كليهما نتاج فكر، وكليهما يدخله المنطق، والمنطق واحد. عدا إن الآداب تميل إلى الخيال أكثر مما يميل العلم، وهى تتصل بالعواطف ونوازع النفس وأهوائها أكثر مما يتصل العلم. من أجل ذلك.. سبق الأدب فى التاريخ وتأخر العلم، لأن الإنسان ربيب الدعة والأحلام».

وأدبه تأثر بثقافته العلمية، وهو ما نلمحه ونلاحظه، ومن قبلنا لاحظه الأستاذ العقاد أن صاحب هذا الأسلوب.. لا يستطيع تأكيد ذلك، حيث يقول: «أنا أقرأ ما أكتب، وأقرأ ما كتب الآخرون فلا أجد فرقًا بين الاثنين».. وطبيعى ألا يستطيع عالمنا الدكتور أحمد زكى تحديد ذلك.. فالإنسان أى إنسان لا يعرف صوت نفسه إذا هو سمعه مذاعًا من دار إذاعة. ولكن ربما يعرفه غيره.

إلا أن الحقيقة التى لا يمكن أن يتجاهلها أحد.. هى أن أحمد زكى كان أديبًا.. وله أسلوبه المميز فى الأدب، وأنه كان ـ كما قلنا وكما هو معروف ـ بين العلماء أديبهم، وبين الأدباء عالمهم. وخاصية كهذه تقربه أكثر من غيره من العلماء ـ الذين لا يتمتعون بهذه الخاصية ـ إلى التأمل فى هذا الكون والتفكير فى من يحركه ويصنعه.. وهو بعينه التفكير فى الله وقدرته.

ونظريته فى الإيمان العلمى أو منهجه فى التفكير الإسلامى، حيث يرى أن العلم يستطيع أن يؤدى إلى الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد.

هو يبدأ بالقول: «الناس فى كهولتهم وشيخوختهم صنفان:

صنف يسلم أمره للواقع، يسلم فهمه، فهو لا يفكر، إما جهلاً، وإما عجزًا. ويغمغم فى تعبده بما يدرى وما لا يدرى، على أى دين كان ويغمغم بالذى يكون له معنى، ثم يصير من كثرة التكرار ليس له معنى يعيه، وهو يرجو أن ينزل عليه القدر بالخاتمة، وهو على هذه الحال، ويرجو من يعدّ ذلك حسن المآل. فذلك هو الإيمان الذى قال فيه عمر (رضى الله عنه): (إيمانًا كإيمان العجائز).. وهو إيمانٌ سدت فيه أبواب العقول، وفتحت فيه طاقات فى القلوب، لا يشع إليها النور، ولكن تشع هى بالنور.. طوبى لكل امرئ ما كسب».

أما الصنف الآخر فيؤسس إيمانه على الفهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا.. ولقد يعلم أن العقل سوف لا يبلغ الغاية، ولكن عنده أن بعض الغاية خيرٌ من فواتها كلها. وعنده أن عقلاً يتحرك، يسنده القلب، خيرٌ من عقل كسيح.. وأن عقلاً ينبض بشيء من الحياة خيرٌ من عقل لا حياة فيه.

وإلى هذا الصنف الأخير من البشر.. يتوجه الدكتور أحمد زكى بالحديث عن صلة الإيمان بالعلم، مؤكداً «أن العالم هو أقرب مخلوقات الله إلى الإيمان بالله، حيث إن العالم يؤمن بأشياء لم تتكشف له تكشف الأشياء البديهية. فالعالم يتحدث عن الذرة وهو لم ير قط ذرة، وعن الإلكترون وهو لم ير بعد الإلكترون إلا أثرًا، دع البروتونات والنيوترونات وما إليها وهو يتحدث عنها كأنها بعضه، وهو يؤمن بها بأقصى ما يستطيع الحى الإنسانى من إيمان.

وعند العالم أنه ليس من الضرورى ليؤمن بشيء أن يراه. فهو يرى آراءه استنتاجًا، فى سلاسل من المعقولات طويلة، وهو قد يتهم الشيء الذى يراه رأى العين، احتراسًا من خداع العيون وانخذاع الأفهام.

والله لم يره أحد، ولا أحسب أن إنسانًا على ظهر الأرض سوف يراه، حتى لو صح أنه شيء يرى. فالله معنى، وليس كالعلم ما يثبته.. وإن كان مما يدخل فى نطاقه. أو ليس كالعلم ما ينفيه.. وهدفنا معنى الله، وإثبات هذا المعنى هو بإثبات الوحدة القائمة فى هذا الوجود»[٣].

وللوصول إلى ذلك نرى الدكتور أحمد زكى يقول: «إن دارسى العلم أحد رجلين:

رجلٌ يدرس ليعلم، وليجمع عن الشيء الواحد الحقائق، وليقوم بعد ذلك بتعليمها الناس سبيلاً لكسب معاشه.

ورجلٌ آخر يدرس العلم لنفس الغرض الذى توخاه دارس العلم الأول، ولكنه لا يلبث أن يجد أن ما يدرس يمس الحياة فى جذورها الأولى. ولا يلبث أن يجد أنها أنظمة واحدة أو متشابهة ثابتة، ولو اختلفت فروع العلم عند

دارسيها، إنها جميعًا، سواء اتصلت بالعيش العابر للأحياء، أو بالحالة الدائمة المقيمة للأشياء فهى جميعًا واحدة.

ويهديه النظر والتأمل إلى أنها جميعًا مترابطة فى أرض وفى سماء، ويخرج به التفكير من نطاق الحياة المحصورة التى يحياها كل الناس، إلى حياة لا يحياها إلا أمثاله من العلماء[٤]. وينجذب لطبعه إلى هذا المجهول الذى بعضه الطبيعة، ولكنه يمتد إلى ما أسموه وراء الطبيعة، وهو كلما درس ازداد فهمًا، وازدادت الأمور مع الفهم عليه إبهامًا. ولكن شيء واحد يأخذ يتردد على فكره، يطل من كل ظاهرة يتلقاها، تلك هى الحقيقة التى نسجت عليها الأديان وجودها: تلك وحدة الكون الكاملة الشاملة. تلك الوحدة التى هى من وحدة الله سبحانه وتعالى».

ويزيدنا الدكتور أحمد زكى توضيحًا لنظريته الإيمانية التى ترى وحدة الله تتراءى فى وحدة خلقه، فيقول: «لقد علم السابقون من ظواهر هذا الكون ما علمنا، وعلى قدر علمهم هم فكروا وتأملوا، وبالنظريات نسجوا.. وظواهر الكون كلها تلين عند ممارسة العلم. والعلم الحديث فروع كثيرة، وتفرعت الفروع وتخصصت، وزاد الإنسان لكل ظواهر الكون علمًا. فنحن اليوم أقدر على متابعة دراسة الوحدة الكائنة فى هذا الوجود من آباء لنا وأجداد.

والكون قسمان: أرض وسماء.. أو سماء وأرض. أما السماء التى يدرسها العلم فمن جوامد.. نار ونور، وحركة دائبة تجرى وفقًا لقوانين ثابتة، أثبتنا وحدة الخلق فيها كاملة وانتهينا بعد إثبات الوحدة، إلى أن هذا الكون السماوى لو أمره آمره بأن ينفرط، لا إلى عناصره الأولى فحسب، ولكن إلى ما هو أدنى من ذلك وأبسط، إلى ما فى العناصر من بروتونات ونيوترونات، إذن لانفرط إلى كومة كبيرة هائلة تملأ الفضاء شرقًا وغربًا. ليس فيها إلا هذان: البروتون والنيترون.. وهل أبلغ من ذلك وحدة أصول، إلى جانب وحدة قوانين، وبراعة تقنين؟!..

أما الأرض: فإما الأرض الجامدة، فبعض أجرام السماء يجرى عليها ما يجرى على هذه الأجرام.. وما عليها من خلق، فهذا الخلق هو موضوعات لها الوحدة ندرسها على الأرض من أحياء ومخلوقات الله من حيوانات ونباتات».

ويقول الدكتور أحمد زكى: «ونبدأ بالحيوانات.. والحيوانات على رأسها الإنسان، وهو أكملها خلقًا. ونتدرج من الإنسان إلى ما دونه، إلى الحصان مثلاً، وإلى الكلب والضفدع، والسحالى والأسماك وننزل فى السلسلة إلى بسائط الحيوان حتى الخلية الأميبية الحية الواحدة. ونبين ما فيها جميعًا من تصميم بناء واحد مشترك، ندرج فيها من المعقد إلى البسيط، ونرد كل مخططات بنائها إلى المخطط الأول والأكمل.. جسم الإنسان، نردها إليه تشريحًا، ونردها إليه وظائف أعضاء». ويقول الدكتور أحمد زكى استطرادًا لذلك: «أريد بالعلم أن أبين أن المخطط واحد، وأن القلم الذى رسم التخطيط واحد، وأن الإصبع الذى ركب القلم عند تخطيطه واحد. وإذن فصانع الخلق واحد».

ويقول الدكتور أحمد زكى: «ولكن الوحدة لا تكفى.. لابد مع الوحدة الإعجاز.. الإعجاز فى الصنع، والإعجاز فى الأهداف، وتتباين الأهداف فى الجسم، وتتعارض، وقد تتناقض، فيكون فى الخطة البارعة المرسومة الجهاز الذى يتخطى به الجسم كله هذه العقبات.

إن الجسم يعمل وصاحب الجسم غافل عما يجرى فيه. وهو يفعل لأنه لا يفهم حتى إذا استيقظ له، إلا أن يدرس علمًا. والعلم حتى الحديث، إن أضاء جانبًا، ترك جوانب كثيرة فى ظلام. إن اللغة تجرى فى الناس مجازًا، لقد قال: صاحبى هذا جسمى. قلت ما هو بجسمك، قال: أنا آكل على هوى، وأنا أهضم، ولى حرية امتلاكى جسمى. قلت: تأكل لا على هواك، وإنما على تنبيه جسمك إيّاه إلى حاجته للطعام. إنه الجوع، وهو حس أنت لا تمتلكه. أما أنك تهضم ما تأكل، فإن الهضم عملية تأتى وراءها عملية، وراءها أخرى، وتجرى

كلها وصاحب الجسم لا يرى، ولا يفهمها ولا يستطيع أن يتدخل فيها مسرعًا أو مبطئًا إيّاها. ويتعثر هضمه ولا يدرى لما تعسر، ويذهب إلى الطبيب فقد لا يجد حتى الطبيب غير الظن إلى تفسير العسر سبيلا. وهكذا أنت من سائر جسمك.. من قلبك، من كبدك، من كليتك، من غددك، من أعصابك. أنت من جسمك جالس مثل ما جلس رائد القمر فى سفينته الفضائية، يحسب أنه ارتفع بها، وأنه يقودها، وما ارتفع وما قاد، وإنما ارتفعت به من حيث لا يحسب صواريخ، أدارتها تلقائيًا.. حاسبات إلكترونية هو لا يفهمها، وحاسبات أخرى هى التى جعلت الصاروخ يعود ويشتعل لتفلت السفينة من الأرض إلى القمر. وقد جاز أن يظل رائد القمر أثناء كل هذا نائماً».

ويختم الدكتور أحمد زكى إثباته حول «وحدة الله تتراءى فى وحدة خلقه» بقوله: «إنى بهذا المثل دخلت فى الصميم من حيث لا أدرى».. وبالتخطيط لهذا الكون كله والصنعة كلها، إصبع واحد لا يكفى. لابد من إثبات أن هذا الإصبع الواحد به من الفطنة والذكاء والمهارة والتدبير والحكمة، إذا قورن بما للإنسان من ذلك تحطم ميزان المقارنة خجلا. ومع هذا يجب ألا ننسى أن فطنة الإنسان التى هممنا بمقارنتها، إنما هى من صنع هذا الإصبع.. من صنع تلك الفطنة الكبرى»[٥].

ويعلو الدكتور أحمد زكى فى نظريته القائمة على العلم والإيمان فيرى أن المعرفة عبادة، وأن العالم الحديث أكبر عابد. ومن قبلها يرى أن عبادة الجاهل تختلف عن عبادة العالم. وباختصار.. يرى أن عبادة الله بغير علم كعبادة الأصنام، حيث يقول: «فرق هائل بين أن يعبد الجاهل وأن يعبد العالم، فالجاهل الذى يعبد الله، وهو لا يدرى شيء عن الله، وعن آثاره، وعن محكم آثاره، كما يكشف عنها العلم، كاد أن يعبد الله كما يعبد الصنم لأن اقتناعه بقدرة الله، وبعظمة الله فى أسلوبه وفى منهجه وفى مقداره، كمثل اقتناع يقتنعه عابد الوثن بوثنه، ينشأ عابد الوثن على ما نشأه أبواه. قيل له إنه مدبر فآمن، وإنه يعطى

الشر ويعطى الخير فآمن، وحفظه بما يدفع به نقمته، ويستدر به نعمته.. فراح يتلو صباحًا ومساءً كالببغاء، فهذه عبادة الجهال.. قل فيها ما تقول، واعتذر عن أهل الجهل بما تعتذر، فلن يغير هذا من الواقع شيئا».

ويقول عن عبادة العلماء: «وغير هذا عبادة العلماء. إن عبادة العلماء ليست عبادة لفظ فحسب، وإنما هى عبادة فكر، وعبادة تأمل.. فهى عبادة فكر أولاً ثم لفظ ثانيًا».

ويرى أن المعرفة عبادة، فيقول: «والمعرفة كانت فى سوالف القرون ذات طرقات غير معبدة، يسلكها القليل، يسلكونها عامًا ويتركونها أعوامًا. والمحصول الذى يعودون به من هذا الطريق كان قليلاً، كان فيما بين بعضه وبعض اختلاف تقطعت به فيما بينهم العلائق، لأنه كان محصولاً يلتقط اللاقط ما يلتقط منه اعتباطًا. لأن العاملين على التقاطه على قلتهم كانوا أفرادًا لم يربط بينهم رباط، ولم تجمع جامعة. وغير هذا صار حال المعرفة منذ قرنين أو ثلاثة.. انتظمت أمورها، وتعبدت طرقاتها، وترابط رجالها، واجتمعوا فئات عدة كل فى سبيل، يستهدفون هدفًا واحدًا، يخططون له على التعاون خططًا واحدة أو متشابهة. ويتفرع السبيل الواحد، فتتفرع الفئات العاملة فيه وكل ما يجد الباحثون المتواصلون فى كل بقاع الأرض، يرقم فى كتاب وكتاب وكتاب.. ونقرأ الكتب فيمحصها الرأى والنقاش».

كذلك يرى فى نظريته الإيمانية أن العالم الحديث أكبر عابد، فيقول: «فذلك هو العلم الحديث، علم هذا الكون، بالذى فيه من مواد وقوى، وظواهر جارية أو ساكنة لهذه المواد والقوى. وهو إلى اليوم أثبت قاعدة يستقر عليها اعتقاد وإيمان ما انفسحت تلك القاعدة للعقائد والإيمان. وهى رقعة تتسع على الدوام، فهى تنفسح غدًا لما لم تكن تنفسح له اليوم.. فهذا العلم هو سبيل المعرفة بالله، وهو السبيل الأول والأقوم، وهو آخر سبيل تجوز أن ترتفع إليه ريبة، والباحث

فى العلم، إذا استهدف فى بحثه الكشف ـ ولو بعض كشف ـ فى بعض جوانب الله، فهو أكبر عابد، وأكرم راكع، وأكرم قائم، وأكرم ساجد.

والقارئ للعلم يريد به استنكاه حقيقة هذا القائم الأعظم على الكون، والقائم فيه إنما يعبد الله على أسلوب، هو فى صنوف العبادات فوق الأساليب، لأن العقل فيه يتحرك نحو الله عن علم، ويمتلئ به قلبه عن معرفة، ويمتزج به عقلاً وقلبًا، وجامعتهما النور، والنور لا يكون منه إلا الصفاء، كما أن الجهالة لا يكون منها إلا الظلام»[٦].

وبهذا المنهج الإيمانى تناول الدكتور أحمد زكى التفكير الإسلامى فكتب: «مع الله فى السماء»، و«مع الله فى الأرض»، و«وحدة الله تتراءى فى وحدة خلقه»، و«فى سبيل موسوعة علمية».. إلى آخر هذه المؤلفات، التى يجد فيها القارئ ما ينشده من انتصارات للعلم الحديث فى خدمة الإنسان المعاصر، وارتباطها بما يحس ويشعر من الإيمان.

ونراه حتى فى مناجاته لا ينسى منهجه هذا القائم على العلم والإيمان، فيقول: «أى ربى.. بدأت هذه الأرض صخرًا وترابًا، وعلى التراب ماء، فمن أين جاء عليها اللحم وجاء العظم، وكيف جاء؟! ويأكل الحيوان النبات فيزداد نموًا ويزداد بالنمو بسطة، فإذا بلغ الغاية انحل، فكان للنبات غذاء.

والحياة جعلت عمادها ماءٌ عذبٌ فرات، وجعلت البحار من ملح أجاج. فلما اختلف الحالان، سخّرت الشمس لتبخر الماء، وسخرت الريح لتحمل السحاب. ومن السحاب أنزلت ماءً عذبًا فراتًا. وقد يبدو لنا: قد يتراءى بهذه العقول الصغيرة القصيرة التى أعطيتنا إياها. أنه لو كان أقصر وأخسر، لو أن البحار كانت من أول الأمر من عذب فما الحكمة فى تسخيرك. وإنما بالتدبير عرفناك، وبالحكمة البديعة الرائعة قرأناك. ثم يتراءى لنا لو أنها هكذا كانت، ما عرفنا معنى تدبيرك، وعرفناك».

ويقول الدكتور أحمد زكى[٧]: «أى ربى.. وخلقت الإنسان وخلقت

الحيوان، وخلقت من الحيوان.. الضخم الهائل والصغير الضئيل، وجعلت الحياة بينهما صراعًا، وجعلت بعضاً طعام بعض. فكيف يسود الدنيا السلام، والإنسان للحيوان طعام، والحيوان للإنسان طعام؟!.. والحيوانات تفترس فنقول توحشت، وما هى إلا للعيش طلبت. ويفترس الإنسان ولا نقول توحش، وهو يربى الشاة فيعطيها أحسن ما عنده، وهو يتلطف إليها ويتقرب، ثم تجيئه حاجة الحياة، فيقوم يمنع عنها الحياة، ويقتلها ومع هذا لا نسميه قاتلاً. وتقف عقولنا الضئيلة، وهى الموهوبة لنا فى ضآلتها.. تقف فى حيرة مما ترى. ثم يتراءى لنا فيما يتراءى، أن معنى الحياة والموت اللذين هما عند الإنسان يختلفان، وهما عند الله يستويان. وأننا أشكال تروح وتجيء، كالشمس تشرق وتغرب وتغيب، ويراها الإنسان تشرق وتغيب، وما هى عند الله إلا أجرام تدور».

والدكتور أحمد زكى حين يتحدث عن الإسلام بوجه عام نرى فى حديثه سمات منهجه، فهو يقول: «السنن صنفان.. سنن الطبيعة، يجرى عليها الكون، فهى من سنن الله. وسنن يجرى عليها عيش الإنسان فوق هذه الأرض، فهى ولو ظاهرًا من صنع الإنسان.

وسنن الطبيعة، سنن الله، لا تتبدل ولا تتغير.. الشيء تسقطه فيهبط رأسًا إلى الأرض، والماء تضعه فوق النار فيتبخر ويختفى عنك. وأنت تصيح فى باطن الجبل فيرتد إليك الصوت، وتقول إنه الصدى. وتحبس القط وتمنع عنه الغذاء فيموت. سننٌ هى اليوم حقائق قائمة، وكانت بالأمس قائمة أو إلى يوم يبعثون. وسننٌ تتبدل. وغير ذلك سنن الإنسان، تلك التى صنعها أو هو اتخذها ليجرى عليها العيش، كما زعم حقًا فى هذه الحياة. هذه سنن ما صنعت إلا لتبديل وتغيير، وهى حق فى منطوقها العام.. جاءت على حال مبهم بإذنٍ بالتبديل والتغيير.

خذ أعم تعبير عن أهداف تلك السنن: الخير والشر. سنة الحياة تستهدف الخير نظامًا. ثم ينظر الإنسان فى الخير على القرون، فيبدل فى ما احتواه معناه، ويغير حتى لقد يدخل بعض الذى كان قديمًا فى حظيرة الشر إلى حظيرة الخير، ويدخل الذى كان فى حظيرة الخير إلى حظيرة الشر.

وتجد هذا أظهر ما يكون فى الأخلاق.. والأخلاق أسلوب حياة. كم من خلق قديم محرم هو اليوم مباح، يتقبله الناس عملاً، ويتنقلونه حكمًا.. وكم من خلق قديم مباح هو اليوم محرم، لا يرضاه الناس اليوم ممارسة، ولا يرضونه عقيدة.

وقد يرتد المباح مع الزمن إلى تجريم.

وقد يرتد المحرم مع الزمن إلى إباحة»[٨].

وهكذا كان عالمنا الجليل الدكتور أحمد زكى يلتزم منهجه القائم على العلم والإيمان فى كل ما كتب فى التفكير الإسلامى. فجاءت مادته إضافة لهذا التفكير.

الهوامش

(١) علمتنى الحياة ـ كتاب الهلال ـ عدد خاص إشراف أحمد أمين.
(٢) ساعة مع الله ـ الدكتور أحمد زكى ص١٢.
(٣) مع الله فى السماء ـ الدكتور أحمد زكى ص٢٢.
(٤) فى سبيل موسوعة علمية ـ الدكتور أحمد زكى ص٣٦.
(٥) مع الله فى الأرض ـ الدكتور أحمد زكى ص٢٧.
(٦) الهلال المجلد ٦٤ لعام ١٩٥٦م ـ الدكتور أحمد زكى ص٥٩.
(٧) ساعة مع الله ـ الدكتور أحمد زكى ص١١.
(٨) الحرية ـ الدكتور أحمد زكى ص١٩.

●●●